

لقد وصلنا الآن إلى واحد من أبرز الشخصيات في التاريخ الآشوري وهو تغلات - بلاسر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧) ق.م وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام مشكلة متواترة، فقد بدأ أن الفترات التي كانت آشور فيها دولة فتية نشيطة وكان ملوكها شخصيات مرموقة، هذه الفترات كانت تتعاقب في أوجه كانت الشخصيات الرئيسية تزدوى وتذوب في خفايا النسيان، وهكذا يجابها السؤال: هل رفع الملوك الأقوياء شأن آشور وقوتها إلى درجة الازدهار عن طريق قدرتها الموروثة الداخلية؟ أم أن تلك الظروف المواتية العالمية التي مرت بها الدولة الآشورية قد أثرت في ملوكها، وأثرت على تجسيد الدولة المنظور بحيث أكسبتها هالة من التصميم والقوة؟ وأظن أن الحقيقة تقع فيما بين هذين الرأيين المتطرفين.

إذ لا يستطيع أي ملك مهما كانت قوته أن يرفع آشور إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار ضمن ظروف معاكسة دولياً وأحوال قاسية، ولكن عندما ظهرت ظروف دولية مواتية لآشور فإن أي ملك حازم قادر يستطيع تحقيق الفوائد الكاملة من هذه الظروف.

ففي الجزء الأعظم من القرن الثاني عشر كانت الظروف غير مواتية لتقدم آشور، فلقد ظهر العامل العيلامي ولكن الحركة العنصرية التي حدثت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والتي كشفت عن خرافة سقوط طروادة بعد أن جرفت وطردت الإمبراطورية الحثية من الأناضول، وجلبت بعض الشعوب الجديدة التي تتمثل في أفضلها المعروفة وهم الفلسطينيون الذين في سورية وفلسطين وهددوا حتى مصر.

ولا شك أن الموجات الطاغية الناتجة عن هذه الحركات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا العنوان لنخفي معرفتنا بالتفاصيل) ينبغي أن تكون قد وصلت إلى

منطقة الفرات وعطلت التجارة على طول ذلك النهر وبذلك قد عطلت النماذج التجارية في آشور نفسها.

بدأت المسائل بالتحسن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر عندما ظهر بعض الملوك المرموقين مرة ثانية في آشور وبابل، وتدل النقوش العائدة إلى آشور - ريشن - إيشي أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يقوم بزحف على الجبال الواقعة إلى شرق وشمال آشور خارج أراضي آشور الأصلية، ولكنها واقعة ضمن السيطرة الآشورية، وقد ساعد الازدهار المتزايد على تنفيذ بعض مشاريع إعادة البناء مثلاً إصلاح الأبنية المتضررة بسبب حدوث زلزال في أوائل القرن.

وبظهور تغلات بلاسر الأول ابن ووريث آشور - ريشن - إيشي، ظهرت لنا علائم واضحة على انبعاث آشور الذي أصبح ممكناً عند حدوث التجديدات في الظروف العامة، ولكن وبسبب شخصية الملك نفسه، فقد ظهرت استراتيجيات واضحة عن طريقها استطاع تغلات بلاسر أن يعالج بنجاح المشكلات المواجهة لآشور، وقد سهّلت كل خطوة من خطواته إقدامه على معالجة الخطوة التالية.

ولكن لدينا الآن الصدى الأخير، وهو حوادث تغلات بلاسر والحركات التي قامت بها الشعوب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويخبرنا تغلات بلاسر أنه وفي بداية حكمه إلى شعب يبلغ تعدادهم عشرين ألفاً يدعى شعب الموشكي الذين احتلوا الأراضي الواقعة إلى شمال غرب طور عابدين لمدة خمسين عاماً أتوا واحتلوا أرض (كادموخ) المجاورة لأور من الجهة الشمالية الغربية والتي كانت تعد مقاطعة آشورية، وقد ترك أسلاف الموشكي بعض الشك أنهم أحد الشعوب التي قامت بالهجرات العامة في آسيا الغربية في أواخر الألف الثاني ق.م.

ليس لدينا أي دلالة عن أي عمل آشوري ضد شعب الموشكي ما داموا ساكنين فيما وراء (طور عابدين) إذ كانت أعمال تغلات بلاسر تنحصر بالدفاع عن أمن آشور ولم تكن أعمالاً عدائية نظراً لأن التدخلات الآشورية إنما بدأت عند غزوهم كادموخ، والحقيقة أن هذه الغزوة اعتبرت تهديداً مباشراً لآشور وذلك لأن تغلات بلاسر قام بهجوم سريع معاكس، وقد سجل أنه لم ينتظر حتى يؤمن مؤخرة الجيش أي: إنه رأى الوضع بشكل ينبغي فيه العمل السريع الذي لا يسمح بالتأخير بالنسبة للإجراءات العادية التكتيكية.

ولقد نجحت هذه الهجمة التلقائية الأولى، فقد وقع ستة آلاف من الموشكي في الأسر وبعد ذلك استقروا في الأراضي التي غزوها واعتبروا كأتباع لآشور، وفضلاً عن مساعدة هؤلاء في الإنتاج الزراعي، فقد كانت لهم فوائد عسكرية لتغلات بلاسر وذلك لأنهم قدموا له (١٢٠) عربة حربية وقطيعاً من الخيول وبعض الملحقيين من الموظفين الأكفاء.

إن نجاح العملية ضد شعب الموشكي شجعت تغلات بلاسر على اتخاذ خطوات أخرى في بيان الحرب، فقد عبر بعض أهالي كادموخ الموالين للغزاة إلى الضفة الشمالية من نهر الفرات لكي يتحدوا الآشوريين من قلعة هناك، فقد طارد تغلات بلاسر هؤلاء المتمردين ثم بدأ في خصام مع شعب يدعى بابنجو (من الواضح أنهم كانوا يتكلمون اللغة الحورية، مما يظهر من أسماء ملوكهم) وكان هؤلاء منتشرين إلى الشمال من نهر دجلة، ويظهر أن اسم بابنجو لم يكن اسماً اصطلاحياً عرقياً بل كلمة (حورية) تعني: شعب جبلي.

وبعد مناقشات طفيفة حدثت في جوار نهر دجلة قاد تغلات بلاسر جيشاً واتجه إلى حيث كان شعب البانجو في الداخل، ومع أنه كان يشير إلى حرق المدن والاستيلاء على الغنائم، إلا أن قلة التفاصيل حول أسماء المدن يجعل من الواضح أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة استطلاعية.

وقد كان لغزوة وعمل تغلات بلاسر القوي الحازم ضد شعب الموشكي في كادموخ آثاره على المناطق المجاورة الواقعة إلى الغرب حيث كان هناك مجموعات أخرى من الشعوب، وقد وصف أحدهم الشعوب بكونه العساكر غير الراضين من الحثيين، وربما كان ذلك يعني المجموعات المنظمة التي انتقلت باتجاه جنوب شرقي بعد تفسخ الامبراطورية الحثية.

وهناك أيضاً ذكر لشعب (كاسكا) الذين كانوا يعيشون بمحاذاة البحر الأسود في فترة سابقة، وربما رحب مثل هؤلاء بالفرصة التي تجعلهم يُقبلون أعضاء ضمن قوة وطيدة راسخة ولهذا فقد خضع هؤلاء عند قدوم تغلات بلاسر الذي قبلهم أتباعاً له وهكذا بدأ تكوين ذلك التمازج العرقي الفريد الواسع في آشور.

-

لقد تابع تغلات بلاسر غزواته الاستطلاعية فيما وراء كادموخ بقيادة جيشه الرئيسي المدعوم بالعربات الحربية عبر نهر دجلة ثم شمالاً إلى داخل أرض (بانجو) وحيث كانت الجبال غير صالحة لسيير العربات يخبرنا تغلات بلاسر أن جنوده كانوا يحركون العربات بالقوة البدنية فقط وذلك لأن ذلك كان ضرورة في بعض الأحيان، ولكن كان هناك طرقاً يمكن أن تمر بها العربات بسهولة فوق جزء كبير من تلك المنطقة، ولقد حاول شعب (بانجو) إيقاف جيش تغلات بلاسر عن طريق بعض المناوشات في الجبال ولكنهم فشلوا واستمر الجيش الآشوري في تخريب ونهب عدد من الأراضي في (بانجو).

وقد عدد أسماء تلك الأماكن مما يدل أنه كان على معرفة بالمنطقة، ويبرهن تعداده لأراضٍ مختلفة أنه لم يكن هناك أي مملكة قد نشأت هناك.

من الواضح أن حملات تغلات بلاسر قد قادتته إلى شمال نهر دجلة وإلى الأناضول الشرقية ولكن لا يعلم بالضبط إلى أين وصل، ومع ذلك فإن لدينا وسيلتين من المعلومات حول هذه القضية، إحداها وصوله إلى مدينة (ماليد) (تعرف اليوم باسم ملاطية) وقد سجل فتحه لهذه المدينة.

وهناك إثبات آخر يقدمه نقش تركه تغلات بلاسر على إحدى الصخور في منطقة (ملازكرد) إلى الشمال الغربي من بحيرة (فان) وقد كان نص النقش كما يلي:

«تغلات بلاسر، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أركان العالم قاهر بلاد (نايري) ابتداءً من أرض (تومي) إلى أرض (دايينو) وقاهر أرض حبجا حتى البحر العظيم».

من الواجب أن يقدم لنا هذا النص حدود حملات هذا الملك، فهو يعدد خمس مناطق جغرافية ولسوء الحظ لا يمكن تعريف أي واحدة بشكل حازم لا يتطرق إليه الشك، وحتى وبالنسبة لتغلات نفسه كانت (نايري) اسماً غامضاً فقد كانت الأرض المرافقة للملوك الستين (لنايري) الذين واجههم وطاردتهم خلال إحدى حملاته، وكانت (تومي) ودايينو تعني شيئاً معروفاً لديه، فقد كان يثبت مناطق تدخل داخل ذلك الاسم العام وهو (نايري) ولكن وعلى الرغم مما كتب عن تلك البلدان إلا أنه ليس هناك من شيء أكيد.

وكل ما يستطيع أن يقوله المرء: هو أن (نايري) كانت واقعة إلى الغرب من بحيرة (فان) وجنوب (طور عابدين) مع وجود قليل من التأكد حول الحدود الغربية والشمالية وأن (تومي) و(دايينو) كانتا النهايتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بالتوالي بالنسبة (لنايري) والبحر العظيم، ولكن يعتمد الفهم الخاص لهذه الأمور على ماذا يعني البحر العظيم؟ ومن المعتاد أن يعني: البحر الأبيض المتوسط، ولكن هناك اسم آخر لهذا البحر وهو البحر الأعلى مع أو دون إضافة كلمة (إلى الغرب).

وتظهر بعض الملابس بالنسبة للحقيقة التي مفادها أن البحر الأعلى (دون إضافة كلمة إلى الغرب) من الممكن أحياناً أن يدل على بحيرة (فان) وليس من المستحيل أن للبحر العظيم صفتين مزدوجتين وهما البحر الأعلى وفي نقوش تغلات بلاسر تعني بحيرة فان.

هذا وإن التفسيرات الوحيدة غير هذه، هي إما أن نفهم البحر العظيم هنا بمعناه العام وهو البحر الأبيض المتوسط الذي لا يمكن أن يطابق الوضع جغرافياً أبداً أو أن نعتبره البحر الأسود، وهذا التفسير يناسب اختراقات تغلات بلاسر، مع أن بعض العلماء يقبلون ذلك بالمعنى المذكور هنا.

ومهما كانت جغرافية توسعات تغلات بلاسر إلى الشمال، فمن الواضح أن الباعث الرئيسي لهذه التوسعات كان اقتصادياً، فهو يسجل الغنائم بشكل أو إن نحاسية وبرونزية وكذلك مجموعات الخيول والمواشي التي تُعدُّ بالألوف وقطعان الثيران والحمير، ولقد ذكرت الاهتمامات الاقتصادية لتغلات بلاسر في نقوشه فهو يقول:

((لقد جعلت جميع أراضي آشور مجهزة بالمحارث بحيث تزيد مخزونات القمح فوق التي كانت في زمن أسلافي، ولقد ربيت قطعان الخيول والمواشي والأغنام)). وكان واضحاً أيضاً بالنسبة لسياسته الرامية لزيادة مساحة أراضي آشور وطبقة العمال فيها وذلك بواسطة تهجير الشعوب المهزومة، وكذلك فقد طور الذراع الحربي وزاد في عدد العربات الحربية بشكل لم يعهد به أحد من قبل.

لم تكن أعمال تغلات بلاسر البطولية محددة بحملاته إلى الشمال، فقد امتدت نشاطاته إلى جميع الجهات حوله ولاسيما على ضفاف الفرات وهي التي يقول عنها:

«لقد عبرت نهر الفرات ثمان وعشرين مرة في اقتفاء آثار الأراميين». ولقد عرف نهر الفرات وهو الشريان الرئيسي للمواصلات وشهد حركات القبائل الرحل التي كانت تتدخل بالسكان المستقرين أو بالإدارة المركزية، وفي زمن تغلات بلاسر الأول ازداد هذا التهديد بنسب هائلة وذلك عند ظهور أولئك الأراميين الرحل من الصحراء.

فقد كانت أصولهم من الداخل من منطقة جبل بشري وهي المنطقة الواقعة ما بين الفرات والموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة القوافل تدمر، ولم يكن سبب تهديد الآراميين وهجومهم إلى منطقة الفرات الذي بدأ في هذا الزمن معروفاً أو واضحاً، ولكن مع غياب أي شواهد ملموسة يمكننا أن نخمن فقد كان جبل بشري مشجراً، إلا أنه كان عارياً من الأشجار بشكل أكيد قبل العصر المسيحي، وإنه لتخمين معقول أن إزالة الأحراج كانت مسببة عن السكان الأصليين في تلك الفترة وهم الآراميون في الألف الثاني ق.م، إذ إن إزالة الأحراج ستكون سبباً في إفراغ وتوقف ما يدعي بالأمطار العاصفة المسببة لخصب التربة، والتي راحت بالتناوب مع فترات من القحط تسبب تآكل التربة وحدوث فترة من الجفاف، وعند حدوث هذا فإن هذه العملية سوف تجعل المنطقة عاجزة عن إعالة سكانها السابقين مما يستغرق مضي نحو سنتين أو ثلاث سنوات عجاف لبدء عمليات الهجرة العامة من المنطقة.

وطبقاً لتغلات بلاسر فقد عمد الآراميون إلى عبور نهر الفرات ودخول ما يدعى الأراضي الآشورية الدائمة، والاستقرار بمحاذاة الطول الكامل للنهر ابتداءً من منطقة الحدود البابلية حتى (كار شميش) (كركميش).

ولكن تغلات بلاسر طردهم بعد أن نقل جنوده عبر الفرات على طوافات مصنوعة من جلود الماعز، ربما كانت من نوع الطوافات المعروفة في هذه الأيام وتدعى: كيليك **Kelek**.

لقد سجل تغلات بلاسر أن أذى الآراميين كان مستفحلاً بحيث إنه كان مجبراً على ملاحقتهم ثمانية وعشرين مرة: مرتان في كل سنة وليس من المؤكد كيف ينبغي أن نفهم الجملة الأخيرة، فهل كان ((مرتان في كل سنة)) بحيث كان زمن الحملات أربعة عشر عاماً؟ أم أن إظهار القوة مرة واحدة تكفي بشكل طبيعي ما عدا سنة واحدة حين كانت الحالة في غاية السوء بحيث إن تغلات بلاسر كان مجبراً أن يقوم بحملة ثانية؟

والنتيجة هي تأييد وجهة النظر التي مفادها أن تغلات بلاسر كان يعني مرتين كل سنة وأنه وبعد أربعة عشر عاماً ، قام الأموريون بمغادرة الأراضي الآشورية. وفي الواقع وقبل نهاية حكمه الذي دام ثمانية وثلاثين عاماً استطاع تغلات بلاسر الاختراق حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليس بطريق سورية الشمالية خلال أراضي الحثيين فحسب ، بل أيضاً من خلال تدمير وهذا يعني أنه كان يزحف خلال قلب الأراضي الآرامية.

فهل ظل الآراميون وحتى نهاية عهد تغلات بلاسر يؤلفون تهديداً كافياً على محاذاة الفرات مما يلزم القيام بحملة سنوية تأديبية؟ وكان هذا العمل بمنتهى الغباء تكتيكياً علماً بأن تغلات بلاسر كان رجلاً عسكرياً ولم يكن أحق. وعندما وصل تغلات بلاسر إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط أظهر فجأة أن لديه شعوراً إنسانياً ، فقد أراد أن يقوم برحلة قصيرة في أحد القوارب ، وعندما كان في القارب فإنه ربما حاول تجريب الحربون وهو رمح يستعمل لصيد الحيتان ، وقد قال في هذه المناسبة :

«لقد ركبت السفن في مدينة أرواد الواقعة في أراضي أمورو وقمت برحلة ناجحة دامت ثلاث ساعات من أرواد حتى سامورو ، وقد قتلت في البحر نهيرو وهو حصان البحر».

ولقد ذكر الملك هذه المغامرة بفخر واعتزاز فقد سجل هذه المفخرة في زينة مدخل قصره ، وقد قال :

«لقد صنعت من البازولت صورة لما يسمونه نهيرو وهو حصان البحر الذي قتلته بواسطة الرمح في بحر (أمورو) وذلك بأمر الآلهة العظام أسيادي».

هذا وإن تحديد حصان البحر هذا قد سبب صرف كميات من الحبر حين سجلت الآراء المختلفة حول كون هذا المخلوق دولفيناً أم حوتاً.

من الواضح أنه كان لتغلات بلاسر اهتمام بالحيوانات الغريبة وكانت هذه ظاهرة اتصف بها كثير من الملوك الآشوريين الذين كانوا يرحبون بامتلاكهم

الحيوانات الغريبة مثل السعادين والتماسيح التي وردت إليهم كجزية، أو من الحيوانات هذه أنشأ تغلات بلاسر حديقة حيوان من الحيوانات التي حصلوا عليها من الصحراء السورية، وكان هناك عدد من الحيوانات البرية حول آشور القديمة، وكانت هذه الحيوانات أكثر عدداً مما هي عليه الآن، وكان فيها أنواع كثيرة من الحيوانات اللبونة.

وتشير النصوص إلى صيد الدببة والضباع، والأسود والنمور والفهود، والغزلان والماعز البري، وكل هذه الأنواع لا تزال موجودة في منطقة ما بين النهرين قبل قرن من الزمن، مع أن القلط الكبيرة الحجم قد اختفت، وهناك حيوانات لبونة مثل البيزون (الثور الأمريكي) والجاموس المائي (وقد كان هذا في الأصل برياً ثم أعيد تقديمه كحيوان أهلي بعد أن انقرض من البراري) أما الخنازير البرية (التي لا تزال موجودة بأعداد وافرة) وعدة أنواع من الغزلان (التي أعتبر بعضها منقرضاً) وأما الباقي فهو معرض للخطر من الصيادين العرب الذين يصطادونها في الصحراء بواسطة استخدام مركبات ذات أربعة دواليب ومعهم أسلحة أوتوماتيكية.

وكان هناك الأغنام البرية والوشق والفهد الصياد وحمر الوحش أو (الأخدرى) التي ما تزال موجودة في سورية بشكل وافر في الجزيرة في القرن التاسع عشر ق.م، ولكنها انقرضت منذ عام ١٩٢٧.

وهناك نوع من الحيوانات أرسله التجار إلى تغلات بلاسر من الخارج، والتي حاول تربيتها بشكل قطعان وهو الجمل ذو السنامين وقد ذكر هذا الجمل ابن الملك ضمن نصوص المسلة المكسورة، وربما جلب هذا الحيوان من المنطقة فيما وراء زاغروس نظراً لأن الاسم الذي عُرف به وهو (أوردو) مشتق من الكلمة الهندية الأوروبية التي تعني: الجمل ذو السنامين.

ويذكر تغلات بلاسر حيواناً آخر يدعى بورهيشي كان قد أرسل إليه كنوع من الجزية، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الحيوان هو الياك (ثور التبت) ولكن الحقيقة أن الياك موجود في أراضيه وبيئته (وهي جبال التبت العالية فلا يمكن أن يكون موجوداً في آشور سواء عن طريق الجزية أو عن طريق التجارة، والحقيقة أن

كلمة بورهيشي موجودة إلى جانب كلمة أوردو المكتوبة على المسلة المكسورة، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد اخترعه الآشوريون عندما قابلوا الجمل لأول مرة، نظراً لأن الكلمة ربما تعنى (ذو العجزة) وهذا يشير إلى السنام.

وهناك حيوانات من ذات الأربع قوائم وجدت قرب منطقة ما بين النهرين في الأزمنة القديمة وهي تشمل حيوانين مسهبين جداً وهما الثور البري وهو حيوان بري كان ارتفاع العجل من هذا النوع ستة أقدام حتى منطقة الكتف، وكان هناك نوع من الفيلة، وقد كان الملوك الآشوريون مولعين بصيد الأسود والفيلة فما سبب انقراض هذين النوعين مع أنهما كانا ما يزالان موجودين بعد قرنين من عهد تغلات بلاسر؟

وهناك نوع آخر من الحيوانات المرموقة القديمة وهو النعام الذي وجده الملوك الآشوريون وصادوه وأتلفوه في الصحراء السورية مع أن هذا النوع نجا وكان ما يزال يشاهد هناك في القرن العشرين الميلادي.

أما الأسود فقد كانت شائعة الوجود وخطرة بالنسبة للحيوانات الأليفة وللبشر في الأرياف المكشوفة، ويذكر الملوك الآشوريون المجازر التي حدثت فيها قتل نحو ثمانمائة أسد مرة واحدة، ويبدو أن هذه الضحايا كانت تصطاد وبعدها يطلق سراحتها وتوضع في حدائق مخصصة، إلا أن الرسوم تعطينا بعض الدلالات التي تشير إلى الانتشار الواسع للأسود.

وفي قصة الطوفان يقترح على الإله إنليل استخدام الأسود لفتك بالبشر بدلا من الطوفان وهذه طريقة أفضل، وهذا يدل أن الأسود كانت تعد تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان، ويأتي تقرير من ماري يعود إلى الألف الثاني ق.م، أن أسداً قد أمسك به على سطح أحد المنازل، وكان من الواضح أن الأسود كانت تستطيع الدخول مباشرة إلى داخل القرية.

كان تغلات بلاسر الأول رجلاً ذا همة عالية ونشاط مستمر واهتمامات واسعة، وفي أثناء حكمه حصلنا على مجموعة من القوانين الآشورية التي تم تنظيمها في مجمل القوانين الآشورية، وربما كان ذلك بناءً على أوامر هذا الملك،

وكانت إحدى تلك القوانين تعالج مشكلات ملكية الأراضي وغيرها كان يعالج مشكلات تختص بالنساء.

ننتقل من تغلات بلاسر المهتم بالحيوانات والمشرع القانوني إلى تغلات بلاسر مؤسس الاستراتيجية العسكرية، وذلك لكي نطلع على مواقفه بالنسبة لقضية الحدود، وهي القضية الحساسة سياسياً في الجبهة الجنوبية مع بلاد بابل، وقد حدثت هنا المصادمات الحدودية المعتادة التي استجاب لها تغلات بلاسر أخيراً ودفع بقواته إلى ما وراء الحدود للاستيلاء على المدن الشمالية بما فيها العاصمة بابل، ولكنه لم يقم بأي محاولة لتنصيب نفسه ملكاً على بابل، وبدلاً من هذه الحملة لم تكن سوى غارة تأديبية للضغط على بابل لقبول حدود تمر أبعد جنوباً.

ومن جهة أخرى كان للتماس مع بابل نتائج تزايد نفوذ الثقافة البابلية والنفوذ البابلي في آشور، وكانت إحدى مظاهر هذا النفوذ ابتداء إبدال أسماء الأشهر البابلية لتحل محل الأسماء الآشورية.

ولقد شهد حكم تغلات بلاسر أيضاً نمواً متزايداً لأهمية نينوى السياسية، وهذا كان ضرورياً لأجل السيطرة على الشمال، وقد اعترف بهذه المدينة أنها المدينة الثانية والعاصمة الثانية لدولة آشور، وقد كانت مشهداً للأعمال العمرانية المرموقة وذلك بما فيه إعادة بناء سورها.

لا تكفي الظروف الدولية لوحدها لتفسير الحماس والنشاط الآشوري في زمن تغلات بلاسر إذ إن حكمه يعطي مثلاً جيداً لأهمية المقدرة الشخصية والنشاط عند هذا الحاكم، وقد مرَّ على عرش آشور فيما بعد ملوك اتخذوا لهم اسم تغلات بلاسر، وهذا ما يدل على شخصية تغلات بلاسر العطرة الدائمة التي تبشر بالنجاح، ولكن لم يعمد أي حاكم فيما بعد إلى اتخاذ أسماء أبناء هذا الملك الذين خلفوه رغماً عن الاسم الشهير للابن الثاني وهو آشور - بيل - كالا وهذا

الاسم يعني: الإله آشور هو سيد الجميع وهذا الاسم يعكس آماني الأب أكثر من إنجازات الابن.

بعد انتهاء حكم تغلات بلاسر حدث انحطاط سريع يصاحبه التزايد الدائم لأهمية الآراميين، الذين ناضل هذا الملك ضدهم بشكل مثابر وناجح، ويعتمد البحث حول كيفية تركيب التفاصيل حول الطريقة التي استطاع بها الآراميون قلب الموازين ضد آشور على كيفية فهمنا لأحد الأنصاب المعروف باسم المسلة المكسورة، ونظراً لأن المسلة مكسورة فنحن لا نستطيع معرفة اسم الملك الذي كتب تلك النقوش، ولكن غالباً ما ينسب الآن إلى ابن تغلات بلاسر وهو الخليفة الثاني لوالده واسمه آشور - بيل - كاللا.

وتتملك هذه النصوص بعض المظاهر القديمة، فهي تتكلم بضمير الغائب وأحياناً بضمير المتكلم وتبدو أن المقاطع المكتوبة بضمير الغائب وكأنها لا تتحدث عن آشور بيل كاللا بل عن أحد أسلافه، وباعتبارات التقوى فقط أن هذا السلف من المحتمل أن يكون والد آشور - بيل كاللا وهو تغلات بلاسر وعندما نجد أن هذا النص يذكر شؤون الصيد، وجمع الحيوانات، وهذا يتفق مع ما يذكره تغلات بلاسر عن نفسه، عند ذلك تبدو المسألة وكأنه ليس فيها مجال للشك، ولكن وبينما تذكر نقوش تغلات بلاسر عن أحوال مغادرة الآراميين عبر الفرات (وهذه المسألة مذكورة من المسلة المكسورة) فإن المسلة المكسورة تضيف بعض المراجع التي تعود إلى الشهر التالي حول مهاجمة إحدى القوافل الآرامية في أماكن مختلفة، وتقع بعض هذه الأماكن بعيداً عن نهر الفرات في مواقع داخلية في أراضي آشور مثلاً في طور عابدين بمحاذاة نهر دجلة قرب حرّان وبمحاذاة نهر الخابور، وليس هناك ما يدل فيما إذا كانت القوافل الآرامية تحتوي على التجار والوحدات المقاتلة، أو أنها عبارة عن مجموعات تحاول أن تجد لنفسها مكاناً تأوي إليه.

ولكن من الواضح أن هذه القوافل كانت واسعة الانتشار، وبنفس الوقت لم تكن هذه القوافل قوية، ولم تكن تعمل بشكل متناسق نظراً لأن الملك الآشوري كان قادراً على مطاردة كل مجموعة بسرعة، وفي الوقت نفسه مطاردة قافلتين أو ثلاث وحتى أربع في الوقت نفسه، وفي نفس الشهر، ويستتج من كل ما ذكر أنه رغم محاولات تغلات بلاسر الناجحة لضبط محاولات الأراميين وكبحها عند عبور الفرات من جبل البشري، فإن مجموعات صغيرة كانت تتجو من هذه الشبكات وتتجح في النفاذ إلى بلاد آشور، وهذا ما سبب عدم قدرة خلفاء تغلات بلاسر على عدم التأثر بالضغوط الأرامية.

تولى آشور - بيل - كالا - العرش (من ١٠٧٤ - ١٠٥٧) بعد أحد أخوته الذي حكم مدة سنتين، وتتحدث تواريخه بطلاقة عن الأعمال السريعة ضد المناطق الشمالية الجبلية، وقد ادعى عن حصوله على نجاحات عسكرية.

ولكن الأمر الواضح هو أنه مع ذكر الفنائم التي غنمها الآشوريون إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة عن الجزية، وأنها جلبت إلى آشور من قبل الأتباع المغلوبين، وكان بوسع الجيوش الآشورية أن تعيث خراباً ولكن دون هدف ثابت، وذلك لأنه، وفي أثناء حكم آشور - بيل - كالا، لم تعد آشور قادرة على تجسيد انتصاراتها العسكرية في ترتيبات إدارية مهمة أكثر من القبول الرسمي بالسيادة الآشورية، وهكذا يذكر آشور - بيل - كالا حملات له ضد الأراميين، ولكن كانت مضامين تعابيره تدل أن الأراميين لم يعودوا ذلك الشعب الذي يمكن طرده من الفرات بمحض الإرادة، إذ إن قول هذا الملك: إنه كان ينهب الأراميين باستمرار يدل أن المشكلة الأرامية قد استفحلت.

في الحقيقة إن الأراميين قد تحولوا إلى تهديد خطير بالنسبة إلى كل منطقة ما بين النهرين، بلاد بابل وبلاد آشور على السواء، وكانت النتيجة الحتمية أن

تتحد آشور مع بابل لدرء الخطر المشترك وللدفاع المشترك، ويوصف هذا الموقف في إحدى الحوليات:

((في زمن آشور بيل - كالا ملك آشور ومردوك - شايك - زيزي ملك كاردونيش (بابل) عقد في هذا المكان اتفاق ودي بينهما))، وهذا مما قوى مركز الآشوريين، ولكنه لم يكن منقذاً من الضغط الآرامي، وعند موت ملك بابل أصبح آشور - بيل - كالا ملك آشور في وضع اضطره للتدخل في شؤون قضية الوراثة البابلية، وطبقاً للحولية التي ذكرت آنفاً فقد عين أداد - ابلا - أدينا ابن اسجيل - شادوني ابن شخص مجهول ملكاً عليهم، هذا وإن كلمة شخص مجهول تدل أن أسرة الملك الجديد لم تكن من أصل ملكي بابلي قديم، ونستطيع أن نحصل على صورة واضحة لما كان يحدث عندما نجد أن هناك حولية أخرى تدعو أداد - ابلا - أدينا رجلاً آرامياً مفتصباً (مع وضع اسم مختلف لوالده لإضافة علائم الشك حول أصوله).

ويبدو أن آشور بيل كالا كان الآن يسلك الطرق الدبلوماسية في معالجة التهديدات الآرامية وذلك بقبول أمير آرامي بارز تابعاً وحليفاً له، وقد استخلص أقصى قدر من المنفعة من الموقف وذلك بالزواج من ابنة أداد - ابلا - أدينا.

وتقول الحولية: "لقد تزوج آشور - بيل - كالا ملك آشور ابنة أداد - ابلا - أدينا ملك كاردونيش وحملها معه مع مهرها الثمين"، ولقد كانت نتيجة هذه الحوادث أن وضعت آشور في مركز قوى بالنسبة إلى بابل في الوقت نفسه، وبكسب ولاء الزعيم الآرامي الرئيسي فقد أزال خطر التهديدات الآرامية مؤقتاً.

وفي الوجه الآخر للعملة وجد أن آشور قد أظهرت نفسها أنها غير قادرة في تلك الظروف أن تتابع سياسة مستقلة، وفي الوقت نفسه أن الحلف الذي استطاعت آشور عن طريق التدخل في شؤون وراثة العرش في بابل ترك آشور معرضه لتدخل بابل في شؤون آشور الداخلية الخاصة، ولقد حدث هذا بالضبط وبمرور الزمن فقد أزيح ابن آشور - بيل - كالا عن العرش بعد مرور أقل من عام على يد عمه شمسي - أداد الرابع وهو ابن آخر من أبناء تغلات - بلاسر الذي وكما عرفنا من

قائمة الملوك الآشوريين استولى على العرش من قاعدة بابلية وذلك بدعم وموافقة البابليين.

وفي القرن التالي الذي تم فيه حكم ستة من نسل شمسي أداد الرابع فإن معرفتنا بالتاريخ الآشوري كانت سطحية نظراً لعدم وجود نقوش ملكية وهذه دلالة واضحة على ضعف الدولة الآشورية، وهناك نص يعود إلى حوالي عام ٩٧٠ يحمل هذه الحقائق، وهذا النص يمجّد أحد الحكام المحليين لكونه شيد الأبنية وحضر الأقتنية ونهر الخابور، وذلك أنه ومنذ زمن آشور القوية كانت مثل هذه الأعمال من صلاحيات الملك، وإن قيام حاكم محلي بمثل هذه الأعمال يدل أن السلطة المركزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جداً، إن لم تكن معدومة.

تظهر الشواهد من بابل البلبلة الجدية التي سببتها الهجرات الآرامية المستمرة في ذلك الزمن، وفي تلك المدينة (أي: بابل) كان يقام مهرجان سنوي ديني يدعى (الأكيتو) الذي كان يلغى عندما تكون الظروف السياسية غير مواتية بحيث يستحيل القيام بالمسيرات، وتذكر الحوليات التي تسجل هذا الخرق للعادة المذكورة في عامي ٧٧١ و ٧٧٠ حين ألغى المهرجان نظراً لأن الآراميين المعادين قد هددوا ضواحي مدينة بابل مباشرة.

بعد أن استقر الآراميون شكلوا لأنفسهم ممالك بشكل تدريجي وكان أقدم هذه الممالك في سورية، وإن إحدى هذه الممالك الآرامية وهي مملكة (صوبا). (سوبايت حسب النقوش المسمارية) قد تعرضت إلى الهجوم من قبل الملك شاول افسرائيلي قبل عام (١٠٠٠) ق.م بقليل. (وبعد (١) قليل توسعت المملكة الإسرائيلية الجديدة تحت حكم داود وسليمان لتشمل المنطقة حتى الفرات، وإن عدم وجود

(١)

مواجهة آشورية والقدرة على تنفيذ هذا التوسع على الحدود هو سبب آخر يظهر عجز وعدم قدرة آشور من ذلك الزمن).

لماذا أدى الوضع الآرامي إلى ضعف دول منطقة ما بين النهرين بحيث سمحت لإسرائيل بالتوسع شمالاً حتى الفرات.

إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على المدى الذي وصلت إليه تلك المجموعات من البدو الرحل من الآراميين في استيطانهم وإنشائهم ممالك مستقرة، إذ إنه عند حدوث اتحاد بين العشائر القبلية فليس هناك أي سلطة مركزية، وهذا ما أشارت إليه النصوص التوراتية، ومن مثل هذه الحالات فإن كل فريق يفعل ما يريد وهو يعني ما يفعله حقاً في نظره، وعلى العموم فليس هناك أي حاكم منفرد يستطيع قبول أي معاهدة وينفذها في جميع أرجاء المنطقة.

وليس هناك من أحد يستطيع تأمين حركات التجار وللتأكد من أن قوافلهم سوف لا تتعرض للنهب أو تهديدات أي عشيرة يمكن للقوافل أن تدخل أراضيها وتمر بها.

وكذلك ليس هناك من أحد يستطيع أن يتكلم عن العلاقات السياسية بالنسبة للمنطقة بأجمعها، ففي سورية أصبح الآراميون على طريق الاستقرار في ممالك مستقرة حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، بينما وفي منطقة ما بين النهرين كانوا ما يزالون في طريق الهجرات والاستقرار خلال جيلين.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر أصبحت الجماعات الآرامية المستقرة تؤلف ممالك منظمة في منطقة ما بين النهرين كما كان الحال في سورية، ولقد استفادت آشور من هذا الوضع، وابتداءً من حكم آشور دان الثاني (٩٣٤ - ٩١٢) بدأت النقوش الآشورية بالتكاثر معلنة استئناف الازدهار الآشوري من جديد.